الشهيد المهاجر

« فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ
فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا »

obeikandl.com

ما كاد ينتهى رسول الله ﷺ من حديثه بين ظهرانى المسلمين بمسجده بالمدينة ، حتى طرق باب المسجد وفد من خزاعة وبنى كعب ، يتقدمهم عمرو بن سالم الخزاعى ، فسلم . . ثم أنشد يقول :

يارب إنى ناشد محمـــدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتمو ولدا وكنا والدا ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصر أعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا إن سيم خسفا وجهه تربدا
فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا إن قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا وجعلوا لى فى كداء(١) رصدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا وهم أذل وأقل عـــددا
هم بيتونا بالوتير (٢) هجدا وقتلونا ركعا وسجـــدا

وسكت عمرو ، بينما قال رسول الله ﷺ :

— نصرت ياعمرو بن سالم . .

ثم رفع النبى ﷺ بصره إلى السماء من إحدى نوافذ المسجد ، وأشار بيده إلى سحابة قائمة تخترق كبد السماء ، وقال :

— إن هذه السحابة لتستهل بنصرة بنى كعب ! !

وما لبث المسلمون أن أدركوا النبأ العظيم . . نبأ انقضاض قريش وحلفائها من بنى بكر وبنى الديل ، على خزاعة وبنى كعب ، وهما

---

(١) كداء : جبل بأعلى مكة .

(٢) الوتير : اسم ماء لخزاعة وبنى كعب .

البطنان اللذان دخلا فى عقد المسلمين يوم الحديبية ، وصدقا الرسول وعده بصدق الإيمان ، وإن نأت بهما الدار وعظم عليهما خطر الجار . . لقد انقضت عليهما قريش وأثخنتهما قتلا وأسرا وجراحا وتعذيبا ، فنقضت بذلك عهدها مع رسول الله ﷺ على ألا تقوم بينه وبينها حرب خلال عشر سنين . .

وسنحت الفرصة الذهبيـــة للمسلمين كى تأخذ قريش الدرس الأخير ، ليؤول أمرهـا إلى ما آل إليه أمر سائر البطون فى ربوع الجزيرة كلها .

ودوى نفير الزحف ، وخرج رسول الله ﷺ لفتح مكة ، فى أعظم جيش دب بقـــدمه على وجه الأرض ، يضم تحت راياته عشرة آلاف مقاتل ، قد انتظمت صفوفهم فى كتائب مهيبة متعددة ، يتقدم كلا منها سيف من سيوف الله . .

ووقف الجيش العظيم عند منـافذ البلد الحرام ، يتأهب للدخول من مداخل عدة . . وأخذ القرشيون فى هلعهم يترنحون كالسكارى فى انتظار سفيرهم أبى سفيان ، لا يعرفون ماذا يفعلون . . إنهم يعتقدون أن دماءهم قد صارت حلالا للرسول ﷺ . . فلا ملجأ لهم من الموت إلا العفو أو الفرار من الحصار لو يستطيعون . . ولكن هيهات هيهات ، فكلا الأمرين لا يزال بعيد الاحتمال ! !

وأقبل أبو سفيان وقد أسلم لله رب العالمين ، ووقف على ناقته بين أهل مكة ، وصاح فيهم يقول :

— يامعشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن

دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . .

وتسرب القرشيون إلى مآمنهم فزعين ، ولكن عكرمة بن أبي جهل - وقد سبق أن نذر نفسه اللات والعزى لحرب رسول الله ﷺ - أبى أن يضع السلاح ، أو يرضى بما رضى به أهل مكة . . فجمع أجناده وفتيانه ، من بنى مخزوم لملاقاة المسلمين ، فإما القتل فى ميدان الحرب ، وإما الفرار تحت ظلال السيوف ! !

ودخل رجل من أصحاب عكرمة على امرأته وهى تنهره وتقول :

— لا يخدعنك عكرمة يا حماس بن خالد . ! !

وأجابها حماس وقال :

— لآتينك بخادم من أصحاب محمد !!

وأقبل خالد ابن لوليد على رأس كتيبة من كتائب الله ، فتصدى له عكرمة فى الخندمة . . وكان لقاء عنيفا انكسرت له شوكة فتيان بنى مخزوم ومن معهم بعد ساعة . . وفر عكرمة امام ابن عمه خالد . . فر إلى مجاهل الصحراء حيث لا يعلم مصيره أحد . .

وعاد حماس بن خالد إلى امرأته خفية ، فقابلته مستهزئة وقالت :

— أين الخادم ! ؟

فأطرق برأسه فى ذل وانكسار . . ثم أنشد يقول :

فأنت لو شهدتنا بالخندمة ... إذ فر صفوان وفر عكرمة

وأبو يزيد كالعجوز المؤتمة ... لم تنطق فى اللوم أدنى كلمة

إذ ضربتنا السيوف المثلمة ... لهم زئير خلفنا وغمغمة !!

ودخلت كتائب الله مكة من كل فج . . ووقف رسول الله ﷺ يعلن على ملأ الناس عفوه الكريم . . واستثنى منهم جماعة قليلة على رأسها عكرمة بن أبي جهل . .

ولكن أين عكرمة اليوم !؟ إنه لا يزال يطوى صحراء العرب هاربا فى طريقه نحو اليمن ، يفكر فيما قدمتـــه يداه فى تلك الأعوام الطوال ، التى عادى فيها رسول الله وأصحابه أشد العداء ، حيث لم يدفعه إلى ذلك كله سوى الخوف على هذا المجد المؤثل أن يضيع من يده بعد أن صار سيد بنى مخزوم ، وأعلاهم مكانة ، وأعزهم جاها ، وأوفرهم مالا ومتاعا . . إنه اليوم طريد شريد لا يطرق قلبه سوى أحاسيس الموت فى كل لحظة على أيدى المسلمين . !!

ووصل عكرمة إلى اليمن ، ولكنه لم يستطع البقاء فيها من شدة الخوف ، فيمم وجهه بعد تفكير عميق شطر الحبشة التى كانت الملجأ الذى أوى إليه المسلمون من قبل فى هجرتهم الأولى ، يوم أن كانت مكة هى مرتع الطغيان لقريش . . وميدان التنـــكيل بأعداء اللات والعزى من أهل التوحيد ! !

وتحركت السفينة تقل فى جوفها عكرمة ومن معه ضمن من فيها إلى الحبشة . . وما أن سارت قليـــلا حتى أصابتها ريح عاصف ، وكاد أن يبتلعها اليم بأفواهه الفاغرة من كل جانب . . وأمسك من فيها عن الكلام . . ونظر ربانها إلى عكرمة ومن حوله ، وقال :

— أخلصوا ، فإن آلهتكم لا تغنى عنكم شيئا هاهنا ! !

وصمت عكرمة برهة . . ثم رفع رأسه ، وقال

— إن لم ينجنى فى البحر إلا الإخلاص ، فلن ينجنى فى البر غيره !!

ثم صمت برهة أخرى ، رفع بعدها بصره إلى السماء، وقال :

— اللهم لك على عهد إن أنت عافيتنى مما أنا فيه ، أن آتى محمدا حتى أضع يدى فى يده ، فلأجدنه عفوا كريما . .

وكأن إدارة السماء أرادت أن تنجى عكرمة ، ليختم حياته بالتوبة النصوح، وليدرك أن آلهته الصماء ، التى أخلص فى سبيلها طوال مرحلة الشباب ، لن تستطيع حمايته فى البحر ، بعد أن نكل بها المسلمون على ملأ عبيدها فى البر !

وأسلمت أم حكيم زوج عكرمة وابنة عمه الحارث بن هشام يوم الفتح . . ثم استأمنت لزوجها من النبى الأعظم فأمنها ، ، فخرجت مع غلام لها رومى للحاق به ، وبينما هما ببعض الطريق إلى اليمن ، إذ راودها الغلام عن نفسها ، فأطعمته . . وظلت تماطله حتى أتت حيا من العرب ، فاستعانت بهم عليه فأوثقوه ، حتى لا يقتله غير عكرمة إذا عاد . !

وواصلت أم حكيم سيلها . . وكانت المفاجأة . . فهذا عكرمة - وقد نجاه الله من الغرق - لا يزال متحيرا ، كيف يقبل على رسول الله بعد كل ما كان !؟ حتى رأى نفسه وجها لوجه أمام زوجته المخلصة، فما أن لمحها حتى هاجت نفسه من شتى العوامل ، ولكن الزوجة بادرته بقولها :

- جئتك من عند أوصل الناس وأكرمهم ، وقد أمنك . !!

وعاد عكرمة .. وبينما هو فى الطريق إلى مكة ، أخبرته زوجته بأمر الغلام ، فعمد إليه فقتله ، ثم واصل طريقه ليلتقى برسول الله ﷺ .. وما أن طرق باب مكة ليلا حتى شمله الفزع من اللقاء ، فتوقف عن الولوج حتى رأى بعينيه راية السلام ترفرف على سماء البلد الحرام ، فتشجع ودخل ، وسلم أمره للمقدور ..

وكانت ساعة رهيبة ، لم ير سيد بنى مخزوم فى حياته مثلها أبدا .. ولم يطل فزع عكرمة عند باب النبوة ، حتى رأى مالم يكن فى حسبانه أبدا ... لقد خرج إليه الرسول وعانقه .. وقال :

— مرحبا بالراكب المهاجر .!!

هنالك طغت على عكرمة موجة من النور ، محت ظلام قلبه فى لمحة البصر ، وأحلت مكان عداوته الطاغية لله ورسوله بالأمس ، حبا طاغيا جارفا .. فما ملك نفسه أن قال للنبى :

— والله لا أدع مالا أنفقت عليك ، إلا أنفقت فى سبيل الله مثله ..

وتمر الأيام ، فتأخذ التوبة بكل ذرة من روح عكرمة ، فلا يراه القرشيون إلا باكيا ، لا تفارق عيناه كتاب الله ، ولا يشاهدونه إلا ساجدا لله راكعا ..

وتستبد بعكرمة المعانى السامية من فعل رسول الله بأهل مكة حينما عفا عنهم وهو المنتصر الظافر القادر ، لا .. بل يريد ﷺ فى مقام الذين حاربوه مقاما ، ولا يتخذهم عبيدا ، أو يجعل منهم أداة سخرية ونكاية ، كما كانوا هم فى جاهليتهم يتخذون من المستضعفين

سخرية ونكاية ، يوم امن المستضعفون بالواحد الأحد فى دنيا الأصنام وعبيدها من قريش . ! !

ويظهر جلال التوبة على وجه عكرمة ، فينقلب حربا على البقية المنافقة من مشيخة قريش الضالة ، التى تتستر برداء الإسلام لتمنع دماءها ، وتخفى فى كوامنها البغض للمسلمين فى نواديها . . فما يكون من أمر المنافقين إلا أن يدفعوا عن أنفسهم الموت على يديه بغشيان المسجد الحرام لأداء الصلاة ، حتى إذا ما كان يمر عليهم عكرمة فى عزته وقوته بين حين وآخر ، تهامسوا بصوت خافت .. وقالوا :

— هذا عكرمة بن عدو الله أبى جهل ! !

ويغضب عكرمة من قولهم ، ولكنه لا يرضى أن يبطش بهم من أجل أبيه الكافر ، فيستعيد بذلك حياة القبلية الكافرة ، فيكفر بعد إيمان .. ويسرع إلى النبى ويخبره الخبر ، فيغضب رسول الله ويربت على كتف سيد بنى مخزوم ويسترضيه ، ثم يجمع الناس فى البيت الحرام ويقول :

— لا تسبوا أباه ، فإن سب الميت يؤذى الحى . . ثم قال ﷺ :

— لا تقولوا عكرمة بن أبى جهل . . بل ابن عمرو بن هشام

* * *

وارتفعت رايات الجهاد بعد فتح مكة ، فسارت جيوش الرحمن تمحق صروح الكفر صرحا صرحا ، مبتدئة بهوازن وثقيف . . وبلى عكرمة من خلالها البلاء العظيم .. حتى قرت به عين الرسول الأعظم ، فجزاه جزاء الأبطال ، فاستعمله أميرا على هوازن ..

وذهب الرسول إلى الملأ الأعلى . . وارتدت قبائل العرب

من أدنى الجزيرة وأقصاها ، ولولا رجال أخلصوا لله كعكرمة، لذهب الإسلام بذهاب رسوله ..

لقد سارت جيوش أبى بكر إلى ميادينها الرهيبة لحرب المرتدين، وسار فى مقدمة أحدها عكرمة إلى أخطر المعارك وأصعبها ، فقضى على أمر بنى حنيفة وأمر رسولها الكذاب مسيلمة .. ثم بعثه أبو بكر على رأس جيش إلى عمان ، فخاض المعركة الهائلة فى ربوعها ، حتى أعاد للإسلام مجده وعزته ، ومن ثم اقتحم مهرة ، فكتب الله له النصر ، وعاد المرتدون إلى حظيرة الإسلام من جديد ..

وانتهت حروب الردة ، ليستأنف الفتح سبيله إلى الأرض التى حملت أثقال الكفر آلاف السنين ، ولتخوض جيوش الإســـلام ساحات الوغى بميادين فارس والروم فى وقت واحد ..

وقبل أن يتحرك جيش المسلمين لحرب قيصر فى ميدان الشام ، وقف أبو بكر يستعرضه بالجرف على بعد ميلين من المدينة ، فبصر بخباء عظيم حوله ثمانية أفراس ورماح ، وعدة ظاهرة ، فانتهى إليه فإذا هو خباء عكرمة ، فسلم عليه خليفة رسول الله ولم يملك أن قال :

ـ جزاك الله يا عكرمة خيرا

ولما عرض الخليفة عليه المعونة من بيت المال ، أجابه عكرمة وقال :

ـ لا حاجة لى فيها ، معى ألف دينار !!

وفى اليرموك وقف عكرمة أمام جيش الروم الهائل ، يقول فى ملأ من حوله فى الساعة العصيبة :

ـ قاتلت رسول الله فى كل موطن ، وأفر منكم اليوم ! ؟ ثم نادى :

— من يبايعنى على الموت ؟

وأسرع إليه ابنه عمر بن عكرمة ، وعمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور ، على رأس أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم ، فقاتلوا جميعا خلف عكرمة أمام فسطاط خالد بن الوليد أمير الجيش . وكانت لحظات رهيبة أذهلت الأعداء الأشداء عن النضال ، حين برز عكرمة كالموت يحصد رقاب الروم بالعشرات دون كلل أو تراجع .

وتأخذ الشفقة والإشفاق بعكرمة من قلوب المسلمين كل مأخذ ، ويتقدم بعضهم إليه ، وقد جرحت الرماح صدره ووجهه ، ويقول :

— اتق الله وارفق بنفسك !!

ويصيح عكرمة على الملأ ، ويقول :

— كنت أجاهد بنفسى عن اللات والعزى فابذلها لها ، أفاستبقيها الآن عن الله ورسوله ! ؟ لا والله أبدا . ! !

وتصافحت السيوف للمرة الأخيرة بين جماعة عكرمة وبين أعدائهم ، وصدق عكرمة البلاء طلبا للأجر وسعيا إلى الشهادة . . فكان النصر .. وكانت من ورائه الشهادة ..

واحتمل المسلمون عكرمة وابنه فى الرمق الاخير من بين الشهداء إلى فسطاط الأمير ، فخرج خالد يبكى ، فوضع رأس عكرمة على فخذه ورأس عمر بن عكرمة على ساقة ، وجعل يقطر فى حلقيهما الماء وهما لا يدريان ... لقد كانا ينظران إلى مكانيهما بين مراتب الشهداء فى عليين . .